الفصل الثانى

الجنس والمراهقة

إن تقديرنا لمراحل النمو ، فى أى ناحية من نواحيها إنما يتوقف ، على مقدار فهمنا للفروق المختلفة بينها . فالمراهق ينتقل من طور الحداثة إلى طور الرشد والنضج ، فما الذى يميز الرجل عن الفتى ، والمرأة عن الفتاة ؟ وليس فى وسعنا أن نجيب عن هذا السؤال إلا بشكل عام .

إن الرجل العادى الذى يستطيع أن يكيف نفسه للمجتمع الذى يعيش فيه تكييفاً ملائماً يتميز عادة بالخصائص الآتية :

١ — القدرة على التزاوج والإنسال .

٢ — القدرة على إعالة نفسه وأسرته بكده وعمله .

٣ — القدرة على التعاون مع غيره من الرجال .

٤ — القدرة على تحمل نصيبه من المسئولية فى النواحى الاجتماعية والسياسية والعقلية والثقافية والدينية للمجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك فى حدود ذكائه .

وتلك أمور تتطلب درجة عالية من النضج ، وهى درجة قد لا يصل

obeikandl.com

إليها بعض المتقدمين فى السن ، إذ تكون قدراتهم دون مستوى قدرات طفل فى الثانية عشرة من عمره ، فمهما كانت درجة ذكاء هذا الطفل ، فلا بد من أن يصيبه تغيير كبير ، من الناحيتين الجسمية والعقلية ، قبل أن يصل إلى مرتبة الرجولة .

فلا بد لنا أن نبحث قبل كل شيء فى الفروق التى تميز البنت أو الغلام عن الراشد . فالراشد يستطيع التزاوج والإنسال ، أما الطفل العادى فيعجز عن ذلك لسببين : أولهما أنه لا يشعر برغبة فى ذلك ، وثانيهما أن جهازه التناسلى لم يبلغ بعد من النضج درجة تجعله صالحاً لأداء هذه الوظائف ، فهو لا يستطيع أن يؤدى العملية الجنسية ، ولا تستطيع غدده أن تفرز الخلايا التى ينتج الأطفال عن اتحادها بالخلايا التي تفرزها غدد أفراد الجنس الآخر .

فالرغبة مظهر من مظاهر الغريزة وهى فى هذا المثال مظهر للغريزة الجنسية . وقد وصف (مكدوجل) غرائز الإنسان فى كتاب « مقدمة علم النفس الاجتماعى »(١) ، وكتاب « معالم علم النفس »(٢) ، ولا يزال وصفه لها ، وتصنيفه إياها ، من الآراء التى تجد قبولاً كبيراً حتى اليوم . وهو يعرّف الغريزة على أنها « استعداد عصبى نفسانى يجعل صاحبه ينتبه إلى مؤثرات من نوع خاص ، ويدركها إدراكا حسياً ، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند إدراكها ، ويسلك نحوها مسلكا خاصاً ، أو على الأقل

(1) W. Mc Dougall : an Introduction to Social Psychology
(2) » » » an Outline of psychology

obeikandi.com

يشعر بنزعة لأن يسلك نحوها هـذا المسلك »[١] . وإذا ما اعترض سبيل الغريزة عائق ، أو نالها الـكبت أو التأخير ، ظهرت على الفور حالة توتر عند الكائن الحى ؛ فإذا تم إشباعها فى صورة من صور السلوك أفضى ذلك إلى حالة ارتياح نتيجة لاختفاء التوتر ، وهذا ما نصفه بالإشباع النفسى .

وما يثير الاهتمام والانتباه بالنسبة للغريزة الجنسية هو أفراد الجنس الآخر ، والنشاط الذى يعقب ذلك هو التزاوج . فإذا كان الرجال والنساء يعيشون عيشــة الحيوان ، ولم يكونوا كائنات اجتماعية لها مسئولياتها التى تتحدد بالعادات الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فإن التزاوج كان يتم بمجرد ميل فرد من أحد الجنسين إلى رفيق من الجنس الآخر ، دون تفـكير فيما يترتب على ذلك من عواقب ، أو فى أمر العناية بمن ينجبانه من أطفال ، ودون تفكير فى غيرهما من أفراد المجتمع عامة ولـكن ما السبب الذى جعل سلوك الإنسان مختلفاً عن الضرب الحيوانى من السلوك ؟

ليست الإجابة عن هذا السؤال بالهينة الميسورة . ولـكن يمكن القول بأن سبب ذلك الاختلاف يرجع ، بدرجة كبيرة ، إلى أنه لابد من مرور عدد كبير من السنوات بين ولادة الطفل ونضجه الجنسى ، وفى هذه الفترة يتعـلم الفرد ، لا بالمعنى الضيق المحدود للتعليم المدرسى ، بل بالمعنى الواسع الذى يشمل كل ما يتعلمه عن طريق اتصـاله بالناس ، وبذلك يكتسب

---

(١) هـذه الترجمة لتعريف مكدوجل للغريزة منقولة عن الدكتور عبد العزيز القوصى فى كتابه « محاضرات فى علم النفس » ص ١٠٧ الطبعة الأولى .

معايير السلوك التي يقدرها أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، فيعرف ضروب الأفعال التي يتطلب منه غيره من الناس أداءها ، و يتعلم كبح جماح غرائزه ، و إشباعها بالطرق التي يرضى عنها المجتمع كما يتعلم تجنب المقاتلة ، أو محاول قتل خصمه أثناء سورة غضبه ، فإذا ما مرت مثل هذه الأفكار الوحشية في ذهنه فإنه يحاول دوما أن يتمالك أعصابه و يضبط نفسه .

ومن الأمور الهامة أيضاً أنه يكون قد اكتسب أثناء هذه الفترة اللازمة للنضج الجنسي خبرة واسعة بالنساء ؛ فقد كان من قبل يعيش في كنف أمه ، و يعتمد عليها من الناحية البدنية ، كذلك كانت له أخوات أو رفيقات في اللعب ، كما أنه قد تلقى العلم حيناً من الزمن على يد معلمات كانت بعض خبراته المتصلة بهن سارة ، و بعضها مؤلمة . وهكذا فإنه قبل أن يبلغ مرحلة المراهقة يكون قد استطاع أن يكون أحكاماً عن النساء ، فبعضهن يثرن في نفسه الرضى والسرور ، و بعضهن يولدن عنده الشعور بالمقت والكراهية ، بعضهن جميلات وأخريات دميات ؛ وللبعض منهن صوت عذب رخيم ، وللبعض الآخر نعيق كريه مقيت . وهكذا فإنه قبل أن يفكر في اختيار زوجه بوقت طويل يكون قد نمّى في نفسه ألواناً من الأذواق واكتسب أنواعاً من الميول والأهواء نتيجة للخبرة أكثر منها نتيجة للعقل والتفكير . ولو عرفنا نوع هذه الأذواق والميول لاستطعنا أن نتنبأ بنوع الفتاة التي يحتمل أن يختارها رفيقة لحياته . ولذلك كان اختلاف خبراتنا عن خبراته يفضي كذلك إلى اختلاف ميولنا وأذواقنا عن ميوله

وأذواقه . وهذا يفسر لنا ما قد ينتابنا من دهشة عند ما يقدمنا أحد أصدقائنا إلى خطيبته ، فإن تلك الدهشة ترجع فى الحقيقة إلى أننا ما كنا لنقرّ اختيار عروس من هذا النوع لأنفسنا .

فلدينا إذن فى ميدان نمو البنين والبنات على السواء أمثلة للطريقة التى يتعلم بها الكائن البشرى ضبط نزعاته حتى يصبح سلوكه متفقاً مع المعايير التى يرضى عنها المجتمع ؛ كما يتعلم تكوين الميول التى تؤثر فيما تدفعه إليه نزعاته من فعال . فنحن نعلم أن المراهق حينما تشتد نزعاته التى بلغت النضج لا يسلك سلوكا غريزياً خالصاً كما يفعل الحيوان ، لأن سلوكه ليس محكوماً بغرائزه وحدها ، بل بنوع تربيته أيضاً .

تلك هى الناحية السيكولوجية للإجابة عن السؤال الخاص بأسباب اختلاف الإنسان عن الحيوان فى سلوكه . أما تأخر النمو الجنسى فأسبابه جسمية :

إن مما يسترعى الانتباه أن يظل عدد من أعضاء الفرد غير مكتمل النمو لمدة طويلة من الزمن ، ولكن ذلك فى الحقيقة على أكبر جانب من الأهمية من ناحية الحضارة . فلو أن الطفل كان قادراً على التزاوج بمجرد استطاعته المشى ، مما يجعله ينسل أطفالا لا يستطيع إعالتهم ، أو ينشىء أسرة يعجز عن الإنفاق عليها من ثمرة عمله ، لجاءت قصة البشرية مختلفة تمام الاختلاف عما هى عليه ؛ ولكننا نجد أن القدرة على التزاوج والإنسال تتأخر حتى يصبح الفرد قادراً على القيام بكل ما يتطلبه المجتمع منه بصفته رجلا مكتمل النمو .

ويبدو أن هذا التأخير يرجع إلى الغدة المسماة بالتيموسية أو الصعترية وتستطيع أن تتصور الغدد على أنها مصانع كيميائية تقوم بتحويل الدم إلى مواد خاصة ، وبعضها ، كالكبد مثلا ، له قنوات توصل إفرازاته إلى أعضاء الجسم ، ومن بينها الغدد اللعابية التى تصب اللعاب فى الفم ، كما أن البعض الآخر منها ، وهى المسماة بالغدد الصم ، لا تتصل بها قنوات تحمل إفرازاتها ، وإنما تصب هذه الإفرازات مباشرة فى الدم الذى يوزعها على سائر أنحاء الجسم . ولإفرازات بعض هذه الغدد الصم تأثير ملحوظ فى النمو.

وتكون الغدة التيموسية كبيرة الحجم فى الصغر ، ثم تأخذ فى الضمور تدريجاً حتى تصبح غاية فى الضآلة فى حوالى سن الثانية عشرة تقريباً ، وتكاد تختفى بعد ذلك تماماً . ذلك هو تاريخها العادى : ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان أن تختفى فى وقت مبكر عن ذلك ، وعندئذ يحدث النضج الجنسى قبل أوانه ، كما أنها فى أحيان أخرى قد لا تضمر بل تظل كبيرة ، وهنا يتأخر النمو الجنسى أو يتوقف ، وتظل مظاهر الطفولة ملازمة للفرد . كل تلك الظواهر توحى بأن الغدة التيموسية تقوم بوظيفة « الفرملة » بالنسبة للنمو الجنسى للفرد ، إذ أنها تؤخره حتى يكون النمو العام قد قطع شوطاً بعيداً .

والأعضاء التناسلية الرئيسية الأولية هى التى تفرز الخلايا التى لابد من اتحادها بخلايا تفرزها أعضاء فرد من الجنس الآخر حتى يتم التلقيح وإنسال الكائنات البشرية . وهذه عند الأنثى هى البويضات التى يفرزها المبيضان ،

أما عند الذكر فهى الحيوانات المنوية التي تفرزها الخصيتان . وللاناث أعضاء معدة لاستقبال الحيوانات المنوية من الذكور ، والاحتفاظ بها حتى يتحد أحدها بالبويضة عندما تكون صالحة لذلك . كما أن للذكور أعضاء وظيفتها إيصال هذه الحيوانات المنوية إلى الإناث . ويطلق اسم الخواص التناسلية الأولية على الأعضاء التى تفرز الخلايا التناسلية والأعضاء التى تستخدم فى عملية التلقيح بشكل مباشر .

وهناك أيضاً أجهزة تميز الإناث عن الذكور ، ولكنها مع ذلك لا تلعب دوراً مباشراً فى التلقيح والإنسال ، ومنها الثديان عند الإناث . فثدى الذكر يظل طيلة حياته غير مكتمل النمو ، عاجزاً عن أداء أية وظيفة . أما ثدى البنت فيأخذ فى النمو بمجرد اقترابها من مرحلة البلوغ ، إذ يستدير شكله ، وينتفخ ، لأن الغدد اللبنية التى تحت سطح جلده تكون قد نمت ، وأصبحت قادرة على إفراز اللبن . ومن الواضح أن نمو الثدى يرتبط بشكل ما بالنمو الجنسى ، فالثدى المكتمل النمو من الخصائص التى تميز المرأة عن الرجل ، ولهذا تسمى الأثداء بالخواص التناسلية الثانوية ، وتشمل هذه الخواص أيضاً الصوت الرفيع الحاد عند الأنثى (مقابل الصوت الخشن العميق عند الذكر) ، وتوزيع الشعر على الجسم ، وطبقة الشحم تحت سطح الجلد مما يضفى على جسد الأنثى استدارة وليونة ، وكذلك النسب المختلفة لأعضاء الجسم (وهذه النسب تختلف فى الإناث عنها فى الذكور) ، وغير ذلك . أما الخواص التناسلية الثانوية عند الذكر فهى الصوت العميق ،

obeikandi.com

ونمو الشعر على الوجه والصدر ، وظهور الشعر فى أجزاء مختلفة من الجسم ، والتقاطيع الخشنة ، وكذلك النسب الجسمية المميزة له . وتعمل التغيرات المصاحبة للنضج الجسمى على إبراز هذه الفروق بين الجنسين ، ولذلك نجد أن الشبه بين الولد والبنت أشد منه بين الرجل والمرأة .

ويظهر نضج البنات بشكل واضح عندما تكون الأعضاء الجنسية الأولية ، أو المبايض ، قد اكتمل نضجها ، فأصبحت تفرز بويضة كل شهر ، وتحدث تغيرات فى الرحم ، وهو العضو المعد لاستقبال البويضة ، فإما أن يحتفظ بها طيلة فترة الحمل إذا حدث التلقيح ، أو يطردها خارج الجسم . كذلك تنمو فى جدران الرحم قبل خروج البويضة من المبيض مباشرة أنسجة تمسك البويضة فى داخل الرحم وتغذيها بدم الأم . أما إذا لم يتم تلقيح البويضة بحيوان منوى ، فإنها لا تستطيع النمو ، وعندئذ تغادر الجسم على شكل نفاية عديمة القيمة ، وفى نفس الوقت يقذف الرحم بالأنسجة التى سبق ذكرها إلى الخارج مصحوبة ببعض الدم . وتحدث هذه العملية مرة فى كل شهر حتى تبلغ المرأة سن اليأس ، وهى السن التى تصبح فيها غير قابلة للحمل . وعلى ذلك يكون ظهور الحيض لأول مرة بشيراً بحدوث النضج الجنسى الذى يعنى أن الفتاة قد أصبحت قادرة على الحمل والنسل .

وتختلف السن التى يبدأ عندها ظهور الحيض اختلافاً كبيراً ، حتى بين الفتيات اللائى لا يختلفن من حيث الجنسية ، والطبقة الاجتماعية ،

وظروف الحياة . ويقدم لنا (بروكس) فى كتاب « سيكلوچية المراهقة »[١] الأرقام التالية التى حصل عليها من دراسة حالات ٦٨٧٥ فتاة أمريكية

السن[٢]			العدد	النسبة المئوية
٦ ، ١١	إلى	٥ ، ١٢	٢٢٠	٣٫٢ ٪
٦ ، ١٢	إلى	٥ ، ١٣	١٠٥٠	١٥٫٣ ٪
٦ ، ١٣	إلى	٥ ، ١٤	٢٧١٧	٣٩٫٥ ٪
٦ ، ١٤	إلى	٥ ، ١٥	٢١٦٢	٣١٫٤ ٪
٦ ، ١٥	إلى	٥ ، ١٦	٦٤٠	٩٫٣ ٪
٦ ، ١٦	إلى	٥ ، ١٧	٨٦	١٫٣ ٪
المجموع			٦٨٧٥	١٠٠ ٪

ومتوسط هذه الأرقام هو حوالى ثلاث عشرة سنة وتسعة شهور .

ولكننا لا نملك مثل هذا الدليل ، وهو الحيض ، فى حالة البنين . فقد نفحص البول مثلا ونجد فيه بعض الحيوانات المنوية ، وقد يحدث الاستمناء أثناء النوم ، ومع ذلك فإن هذه الأشياء تدلنا فقط على حدوث البلوغ ، ولكنها لا تحدد لنا مطلقاً وقت حدوثه ، ومن ثم لا يكون فى

---

(١) Fowler D. Brooks : Psychology of Adolescence »

(٢) الرقم الأول إلى اليمين يمثل الشهور ، أما الرقم الثانى إلى يسار الشولة فيمثل السنوات . وهكذا نقرأ (٦ ، ١١) مثلا إحدى عشرة سنة وستة أشهر .

(المترجم)

استطاعتنا أن نحصل على معلومات دقيقة فى هذا الشأن عن طريق الخواص التناسلية الأولية ، وعندئذ نضطر إلى دراسة الخواص الثانوية ، مع شدة الحرص على ألا نستخلص النتائج من أحد الدلائل إلا إذا جاءت الدلائل الأخرى مؤيدة لها . فإذا وجدنا مثلا أن صوت الولد قد تغير ، وصحب ذلك نمو الشعر تحت أبطيه ، كما أن شعر العانة قد غدا خشناً ملتوياً ، فإننا عندئذ نكون على يقين من أن النضج الجنسى قد حدث . وقد وضع (جودين) godin مائة غلام فرنسى تحت الدراسة ، وكان يدون ملاحظاته عنهم مرة فى كل ستة أشهر ، فخرج من هذه الدراسة بالاعتقاد بأن البلوغ الجنسى يقع عادة فى سن تتراوح بين الرابعة عشرة والنصف ، والخامسة عشرة . وكل هذه الأرقام توحى بصحة الاعتقاد الشائع بأن البنات ينضجن جنسياً قبل البنين ، ويبدو أن الفرق الحقيقى هو عام واحد .

كذلك توحى البحوث التى أجريت فى أمريكا على أن هناك عوامل كثيرة تؤثر فى سرعة النمو ، فقد قدم لنا (ترمان) Terman بعض الدلائل على أن الطفل الذكى يكون أسرع فى النضج الجنسى من الطفل الغبى . كذلك تؤثر الفروق العنصرية ، والوراثة ، والتغذية ، والصحة العامة ، والصحة العقلية ، والنوم ، والرياضة ، وغيرها من العوامل ، فى تحديد موعد النضج الجنسى .

فليس ما يحدث إذن فى المراهقة هو أن ذاتاً جديدة تظهر إلى الوجود ، بل إن ما يحدث هو أن عنصراً جديداً قد دخل فى تكوين ذات فى طور

النمو . إذ يواجه الغلام والبنت موقفاً جديداً لم يكن مألوفاً لهما من قبل ، ويتغير الناشىء نتيجة لظهور هذا العامل الجديد ، ويحاول أن يواجهه . ومثل هذه التغيرات تعنى ، كما سبق القول ، أن الفرد لم يتكيف بعد للعالم المحيط به قدر تكيفه له من قبل .

وليست هذه أول مرة يجد الكائن البشرى فيها نفسه فى مثل هذا الموقف ، فبينما هو متكيف تماما لبيئته ، تكون عمليات النمو العقلى والجسمى دائبة على تغييره ، فلا يمضى وقت طويل حتى يكون ما أصابه من التغير كبيراً لدرجة أنه يصبح فى حاجة ماسة إلى إعادة تنظيم نفسه ، ومتى تم له ذلك فإن تكيفه للعالم يغدو كاملا مرة أخرى ، ثم يبدأ التغير من جديد وهكذا دواليك . فإذا نظرنا إلى النمو فى هذا الضوء ألفيناه يسير فى طريق متناسق ... تكيف فتغير ، ثم تكيف فتغير وهكذا .

ومما لا شك فيه أننا نقع فى خطأ جسيم إذا اعتقدنا بأنه ما دامت أبرز التغيرات التى تحدث أثناء المراهقة هى المتصلة بالنضج الجنسى فليس هناك تغيرات أخرى سواها . إذ الحقيقة أن الكائن الحى ليس مجموعة متفرقة من الأجزاء المستقلة بعضها عن بعض ، بل إنه وحدة حية ، لا يتغير فيها جزء دون أن تتأثر بذلك سائر الأجزاء . ومع ذلك يبدو أن النضج الجنسى هو الخاصية الرئيسية التى تميز المراهقة ، وبه ترتبط جميع التغيرات الأخرى من جسمية وعقلية .

وربما كان صحيحاً أيضاً (على الرغم من عدم إمكان التثبت تماماً من

ذلك) أن غالبية الأولاد والبنات يمرون بالتغيرات التى تصحب النضج الجنسى دون أن يكونوا فى حالة استعداد لمواجهتها . فهم لا يتوقعون ما سيحدث ، ولا يفهمونه أو يقدرون دلالته : وعندما يشعرون بما أصابهم من تغير ، فإن قليلا منهم فقط هو الذى يكون له أبوان ، أو معلمون ، أو أقارب كبار . يستطيع أن يناقشهم فى المشكلات الجنسية بنفس الصراحة التى يتحدث بها إليهم عن جرح أصابه .

وهذا يرجع من جهة إلى أن نشأتهم كانت متأثرة بما علموه من أن بعض أعضائهم وما لها من وظائف طبيعية ، أمور « قذرة » شائنة ، لا ينبغى الإفصاح عنها للغير ، بل لا بد من إبقائها طى الكتمان . ولقد شب آباؤهم من قبل على ذلك ، وهذا ما يجعلهم يحسون الحرج عندما يحاول أطفالهم إلقاء مثل هذه الأسئلة المحرجة عليهم . وينتج عن ذلك أن المراهق يشعر بالخجل من نمو أعضائه ، ويضطره الاضطراب الذى يصحب ذلك إلى الانتباه إليها ، فلا يستطيع أن يصرف اهتمامه عنها ، ولكنه يخجل من هذا الاهتمام . كما يحرجه أيضاً ظهور الخواص الجنسية الثانوية ، ويشعر بأن الجميع سوف يلاحظونها ، ويعلمون بالتغيرات الأخرى التى بدأت تنتابه .

كذلك يتسبب عن عدم فهم المراهقين لطبيعة هذه التغيرات أن يتسرب الخوف إلى نفوسهم ، إذ يعتقدون أن خطأ مّا قد وقع لهم . وكثيراً ما يصيب المراهقات رعب شديد عند ظهور الحيض الأول ، كما يصيب

المراهقين الفزع عند حدوث أول استمناء أثناء النوم . وقد يدفعهم الاضطراب والحرج إلى كتمان الأمر ، أو يطغى الخوف على الشعور بالحرج فينشدون التفسير عند أبويهم اللذين قد يخبرانهم بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف ، وأن كل شيء سوف يعود إلى مجراه الطبيعي . ولكن ذلك لا يطمئنهم لأنهم ألفوا سماع مثل هذه الأقوال فى ظروف مختلفة ، كمناسبة إجراء عملية جراحية ، أو ما شابه ذلك .

فمن الجلى إذن أن الطريقة المثلى لمعالجة الموقف هى إعداد المراهق من قبل لما هو قادم عليه . فهو فى حاجة إلى نوعين من المعلومات يحسن أن يستقيهما من فئتين مختلفتين من الأفراد ، إذ لا بد أن تفسر له ظاهرة البلوغ على أنها من الخبرات الشخصية التى سيمر بها بعد قليل ، كما ينبغى أن تفسر له من زاوية أخرى على صورة أمر موضوعى عام ، أو جزء عادى من الدراسة العلمية . وبهذا نكون قد استغللنا ثقته ببعض من يكن لهم الاحترام من الأفراد فى معالجة خجله وخوفه ، وإعداده لمواجهتهما ، واستطعنا بذلك أن نزيد من ثقته بنفسه ، وأن نزوده من المعرفة بالقدر الضرورى الذى هو فى حاجة إليه . ولو فعلنا ذلك مقدما ، أى قبل حدوث الخبرة نفسها ، فإنه سوف يكون على أتم استعداد لمواجهتها ، فلا يصيبه منها خزى أو خوف .

وعلى الرغم من ارتباط التغيرات التى تنتاب الأولاد والبنات فى هذه

المرحلة بالنمو الجنسى ، فإنها تتضمن كذلك نتائج أخرى هامة . فتغير جسم الفتاة يذكرها بأنها فى طريقها إلى الأنوثة الناضجة ، كما أن تغير صوت الفتى ، ونمو شعر لحيته بوجه خاص ، يذكرانه بأنه يوشك أن يصبح رجلا . وقد نتصور ، إذا ما تذكرنا تلك الرغبة التى كثيراً ما يبديها الأطفال فى أن يصبحوا كباراً ، أن كلا من الولد والبنت يحس السرور فى توقع تحقيق هذه الرغبات المبكرة ، ولكن هذا ليس صحيحاً فى جميع الحالات ، فإن الطفل الصغير إنما يرغب فى أن يكون رجلا ، أو امرأة ، لاعتقاده بأن ذلك يتيح له الاستمتاع بجميع الميزات التى يظن أنه لا بد حاصل عليها متى بلغ تلك المرحلة من الحياة ، ومن تلك الميزات حرية العمل ، والتحرر من إطاعة ما يصدر إليه من أوامر ، والحصول على ما يشتهى من مال ولعب وحلوى . أما فى سن الرابعة عشرة فإن الولد ذا الذكاء العادى يكون قد رسم لنفسه صورة أخرى عن الكبر ، فهو يعلم أن المال شيء لا بد من كسبه ، وأن العمل ضرورى للعيش ، و بهذا يكون فى موقف يجعله راغباً فى التقدم نحو الرجولة ، وميالا فى الوقت نفسه إلى النكوص إلى الطفوله الحافلة بالأمن ، الخالية من المسئولية . فهو يشتهى الامتلاك ، ويخشاه فى نفس الوقت ، ويتردد بين الإقبال والإحجام . ونحن نعبر عن ذلك بقولنا إنه يكون فى حالة صراع نفسى مصحوب بانفعال القلق ؛ ولهذا فإن مرحلة النضج الجنسى تكون فترة قلق عند المراهق .

وينبغى علينا أن نشير إلى أن هـذا القلق ليس وقفاً على المراهقة وحدها ، فقد خبره الطفل قبل ذلك فى مناسبات أخرى متصلة بمراحل نموه ، كانتقاله من الصبا إلى الحداثة . فالصبا هو مرحلة الاعتماد على الأم ، وهى مرحلة الراحة اللينة والأمن السهل . أما الحداثة فهى مرحلة اللعب الاستقلالى ، والسلوك المتسم بحب السيطرة . والطفل إذ يقف على أعتاب الحداثة يجد نفسه راغباً فى الاستقلال بنفسه ، ولـكنه إلى جانب ذلك لا يريد أن يحرم نفسه من مزايا التواكل . فهو يميل إلى السير قدماً فى طريقه ، ولـكنه يتردد فى ذلك . وتتكرر نفس هذه الخبرة ، مع بعض الاختلاف ، بعد ذلك عند سن العاشرة أو الحادية عشرة تقريبا ، أى عندما يقبـل الطفل على مرحلة النمو التى تتميز بالاهتمام بانتسابه لجماعة أو فريق ، حيث يستطيع أن يشاطر الآخرين سعيهم وراء بلوغ غاية مشتركة . ولما كان قد دأب من قبل ، مدة من الزمن ، على تـكوين ذات ، أو « أنا » ، فقد أصبح عسيراً عليه أن يتنازل بسهولة عما بذل كل ذلك الجهد فى كسبه ولذلك يجد فى نفسه رغبة فى أن يصبح عضواً فى جماعة ، وأن يحتفظ فى الوقت نفسه بفرديته واستقلاله . وهذا أيضاً موقف موسوم بالقلق .

وتلعب خبرات القلق المبـكر دوراً فى تحديد أسـلوب قلق المراهقة وشدته ، كما أنها تؤثر فى طريقة التعبير عنه . فـكثيراً ما نرى الحدث الذى يخشى الرجولة يبذل الخارق من الجهد فى إقناع نفسه بأنه لا يرهبها ، فنجده يقلد الرجال حتى يؤكد للعالم أجمع أنه ليس خائفاً ، شأنه فى ذلك

شأن الأطفال عندما يرتكبون أعمالا جنونية يقصدون من ورائها أن يثبتوا لأنفسهم وللناس أنهم غير جبناء ، وهكذا يلجأ الحدث إلى التدخين والاختيال ، وسلاطة اللسان ، ومصاحبة الفتيات ، أى أن سلوكه بوجه عام يصبح عدوانياً أكثر منه ذا تأثير فى الغير . بيد أننا نلمس وراء كل هذا التظاهر كثيراً من السذاجة ، إذ بمجرد أن يصادفه أحد الكبار ممن يحس الطفل منهم العطف والحب ، فإن هذا القناع يسقط عن وجهه ، وعندئذ يتبدى لنا تحته وجه الطفل الخائف الوجل ، الذى يرهب ما هو قادم عليه رهبة شديدة .

وقد كانت الصعوبات التى تكتنف هذه المرحلة من حياة البنين على وجه الخصوص موضع تقدير الجماعات المختلفة فى شتى مراحل النمو الثقافى ، إذ نجد فى مجتمعات الصيد مثلا أن الرجال يكونون طائفة مستقلة عن طائفة النساء والأطفال . ولا يستطيع الفتية أن يساهموا بنصيب فى الصيد والقنص إلا عندما يصبحون رجالا . أما قبل ذلك فإن الرجال وحدهم هم الذين ينطلقون إلى الصيد ، مخلفين الفتية والفتيات والنساء وراءهم .

وللصياد البدائى كثير من الأسرار التى يحتفظ بها لنفسه ، والتى يعتقد أن معرفة غير القادرين على الصيد لها تؤثر تأثيراً سحرياً فى الحيوان والصائد على السواء . ولذلك فإن رجال مجتمعات الصيد يكوّنون فيما بينهم ما يشبه نادياً ممتازاً له أسراره الخاصة .

وعندما تبدو على الفتية مظاهر الرجولة فإن الصيادين يقررون قبولهم

أعضاء فى جماعتهم و يسمحون لهم بمشاطرتهم أسرارهم ، ولكنهم قبل أن يفعلوا ذلك يضعونهم تحت الاختبار ، ليتبينوا مبلغ شجاعتهم ، ومدى قدرتهم على كتم الأسرار . وكثيراً ما يكون الامتحان قاسياً لدرجة أنه قد يفضى إلى موت بعض الفتيان . ولكن بمجرد أن ينجح الفتى فى اجتياز هذا الامتحان فإنه يصبح عضواً فى جماعة الرجال ، فيلقنونه أسرارها ، ولغة الصيد ، وأسماء الحيوان التي تجهلها النساء ، كما يعلمونه فنون السحر ، وألوان الرقص الذى يساعد على النجاح فى القنص ، وسائر تقاليد القبيلة المتعلقة بالصيد ، وكذلك يعلمونه مصاحبة الرجال ، وتجنب مجالس النساء ، ويسمحون له بامتلاك أسلحة خاصة به ، والاشتراك مع أفراد القبيلة فى رحلات الصيد ، وهكذا يتزيى بزى الرجال ، ويعامل معاملتهم .

وتختلف هذه الأساليب من مجتمع لآخر ولكنها تشترك جميعاً فى الغاية التى تهدف إليها ، وهى الاعتراف بالرجولة وتقديرها عند ظهور معالمها ، وإدخال الشبان فى زمرة الرجال الممتازة ، وغالباً ما يتم جانب من الامتحان بصورة علنية ، حتى يستطيع الفتى إظهار شجاعته ، وقدرته على تحمل الألم ، على مرأى من سائر أفراد الجماعة من رجال ونساء وأطفال ، مثبتاً لهم أنه رجل حقاً ، وعندئذ يكون فى وسعه أن يخرج للصيد مع الرجال ، ويقاتل إلى جانبهم ، ويشترك في اجتماعاتهم ، ويحضر مجالسهم ، ويتحدث إليهم عن أمور لا يجوز الخوض فيها مع النساء .

أما فى مجتمعاتنا الحديثة فليس لدينا ما يشبه ذلك . صحيح أن لكثير

من الهيئات الدينية شعائر وطقوسا تسبق قبول الفتيات والفتيان فى زمرة الهيئة ، مما يؤهلهم لأن يتحملوا نصيبهم من المسئولية عن سلوكهم الدينى ، فيتحررون بذلك من خطاياهم التى وقعوا فيها فى طفولتهم ، ولكن ألسنا نجد فى قليل من بلاد العالم الحديث هيئات دينية تضم جميع أفراد الأمة ؟

لذلك لا نجد فى تاريخ نمو الفرد فى الأمم المتمدينة الآن نقطة يستطيع الفتى عندها أن يقول — كما كان فتى المجتمعات البدائية يقول من قبل — : « إنى الآن أصبحت رجلا ، فقد غدوت ملماً بكل ماينبغى على الرجل أن يعرفه. وقد اختبرنى الرجال ، وعجموا عودى ، فنجحت فى الامتحان ، واعترف الناس جميعاً بأنى رجل » . فى هذه المجتمعات البدائية أيضاً كانت الفتاة تستطيع أن تطالب بحقها فى أن تكون امرأة ، عندما تقيم الدليل على ذلك ، مما يسمح لها بالانضمام إلى جماعة النساء . ومن ثم يلبس الفتيان ملابس الرجال ، والفتيات ملابس النساء ، فيصبح الزي دليلا على مركز الفرد ووظيفته فى اختبارات التدشين ، كما ترمز الأوسمة التى تزين صدر الجندى إلى سجل أعماله .

وعندما كانت الحياة الانجليزية أشد بساطة مما هى عليه الآن ، كان تنصيب الشاب فارساً ، بعد نجاحه فى خدمة أحد الفرسان مدة من الزمن ، يعد من الحوادث الهامة فى الحياة التى تماثل فى كثير من نواحيها نجاح الفتى البدائى فى حفلات التدشين ، كما تشبه ، عند طبقة أرباب الحرف والصناعات ، تسليم الصانع الصغير عقد العمل الذى يعنى الاعتراف به

كصاحب حرفة ، أى أنه قد غدا فى النهاية رجلا مسئولا عن عمله . وشبيه بذلك ما نراه فى الجامعات عندما يتم الطالب دراسته فيها بنجاح ، فيصبح أستاذاً له حق حضور جلسات الجامعة ، والمساهمة فى شئون إدارتها . وهكذا نجد فى حياة النبيل والصانع والموظف اعترافاً عاماً بالرجولة أو النضج ، الذى يدل عليه نجاح الفرد فيما يعقد له من امتحان فى فنون القتال ، أو أساليب الصناعة ، أو مناهج العلم .

أما اليوم فلا نجد فى انجلترا هذا الاعتراف الجدى بالنضج ، فالشاب يصبح من تلقاء نفسه شخصاً مسئولا أمام القانون بمجرد بلوغه الحادية والعشرين من عمره ، فتفرض عليه بعض القيود ، كما يكتسب بعض الحقوق ومنها حق التصويت الانتخابى . وعندما يسجل اسمه فى دائرته الانتخابية فعليه أن يثبت لا درجة تعليمه فحسب ، بل سنه أيضاً . ولذلك يمكن القول بوجه عام إن بلوغ الحادية والعشرين أو سن الرشد يعتبر مناسبة اجتماعية مرحة ، أكثر منه فرصة عظيمة لتقلد المسئولية ، وكسب بعض الامتيازات .

ومن المحتمل جداً أن يعود ذلك على الراشد ببعض الخسائر ذات البال ، فإن بلوغ سن « الرشد » ليس من الأمور التى ينظر إليها على أنها من الحوادث الهامة فى حياة الفرد ، إذ لا تجعل مركزه يسمو على ما كان عليه فى نظر جيرانه . فقد يدرج اسم المحامى فى جدول المحامين ، أو يحصل الطبيب على إجازته ، والطالب على درجته العلمية ، والصانع على عقد العمل ، ومع ذلك تظل كل هذه الأمور مستويات خاصة فى مجتمعات معينة داخل

المجتمع العام ، وليست من مستويات المجتمع العام نفسه . ولذلك أصبح من العسير أن نضفى على دخول الراشد حظيرة المجتمع الحديث ذلك اللون من الروعة والبهاء الذى كان يصطبغ به ذلك فى مجتمع سكان استراليا الأصليين مثلا .

وترجع هذه الحالة إلى الطريقة التى تطورت بها مجتمعاتنا الحديثة من المجتمعات البدائية ، فإنها قد أصبحت أشد تعقيداً ، وأكثر تنظيما منها . ويتطلب الوصف الدقيق لها فراغاً كبيراً ، ومعلومات اجتماعية دقيقة .

غير أن هناك نقطة على أكبر جانب من الأهمية تتصل بموضوع هذا الفصل . فحق الزواج فى المجتمع البدائى كان وثيق الارتباط بشعائر التدشين لأنه من الأمور المقصورة على الرجال والنساء وحدهم . فلا يصبح الفرد رجلا أو امرأة ، إلا بعد نجاحه فى اختبارات التدشين ، وعندئذ لا يبقى عليه إلا أن يختار لحياته شريكا ممن لا تحول قوانين القبيلة دون زواجه منه ، فتقدم لأسرته الهدايا التقليدية ويظفر بموافقتها .

أما فى المجتمع الحديث فإن مقياس الصلاحية للزواج مقياس اقتصادى إذ لابد لراغب الزواج أن يثبت لأهل العروس أنه قادر على إعالتها ، وعلى أن يكفل لها حياة فى نفس المستوى الذى ألفته فى بيت أبيها تقريباً . والمراهق يعلم تمام العلم ، سواء أكان تفكيره منصباً على فتاة معينة ، أو على النساء عموماً ، أنه لا يستطيع أن يفكر تفكيراً جدياً فى الزواج قبل أن

يصل إلى مركز مالى يمكنه من إعالة أسرته من كسبه . وهذا يعنى أن أمامه فترة طويلة من العمل والدرس قبل أن يكون فى وسعه الإقدام جدياً على الزواج .

ويتوقف موعد بلوغه هذه الغاية على مركزه الاجتماعى وطموحه . فإذا قنع بأن يظل من فئة الصناع غير الفنيين الذين يعتمدون فى كسب أجورهم على قوة سواعدهم ، فإنه سيصل إلى أقصى أجر يستطيع الحصول عليه فى الوقت الذى تكون فيه قواه البدنية قد نضجت ، أى فى حوالى العشرين من عمره ، وعندئذ يصبح فى عداد من يتقاضون أجور « الرجال » من هذه الناحية ، فيتحمل نصيبه من المسئوليات المالية المفروضة على الرجال ، والتى تحددها الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها . أما إذا أراد أن يصبح من رجال القانون مثلا ، فإنه سيجد نفسه مضطراً إلى دخول الجامعة بعد انقضاء مرحلة التعليم الثانوى ، حيث يقضى سنوات فى الدرس وتحصيل العلم يؤدى بعدها امتحاناً يكفل له نجاحه فيه الانضمام إلى طائفة رجال المحاماة . وهنا قد لا يكون فى مقدوره أن يستدر من مهنته من المال ما يكفى لسد نفقات ذلك المستوى من الحياة الذى يلائم مركزه قبل سن الأربعين .

وهذا يصدق أيضاً ، مع بعض الفروق التى لا بد منها ، على كثير من الحرف والمهن . فالرجل الذى يضع نصب عينيه هدفا من الأهداف ، قد لا يستطيع بلوغ هذا الهدف ، والوصول إلى مرتبة الاستكفاء الاقتصادى ، إلا بعد وقت طويل . وربما أدرك أثناء ذلك أن فى وسعه أن يربح الوافر

من المال إذا ما انصرف عن هذه الغاية البعيدة التى كان يطمح إلى تحقيقها ولذلك فإننا كثيراً ما نرى بعض من اعتزموا أن يصبحوا من كبار الفنانين قد ارتدوا عن ذلك إلى ميدان التجارة سعياً وراء المال . كما أن كثيراً من رجالات العلم والأدب هجروا دراساتهم طلباً للمال عن طريق احتراف التعليم . وهكذا نجد أن الرغبة فى الزواج تتصارع مع النزعات الأنانية التى تولد الطموح فى نفس الفرد . ولقد كان هـذا الصراع محور الكثير من القصص والقصائد ، فالبيت القائل : « إن الذى يسافر وحيدا هوالذى يبلغ أقصى الرحلات » إنما يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الذى يضحى بمطامعه فى سبيل الزواج لن يستطيع أن يحقق من هذه المطامع قدر ما يحققه منها الذى لا يستجيب لإغراء هذه الرغبة . ولقد حاول كثير من كتاب القصص العاطفية أن يصوروا هذه التضحية بلون خلاب أخاذ ، وأن يؤكدوا مبلغ ما يعود على العالم من خسارة إذا أقفر من الحب . على حين حاول كتاب آخرون أن يتخذوا من سيرة فنان عظيم مثل (جوجان) وسيلة للتدليل على أن الطموح أشد وأبقى من تلك الرغبة العابرة ، ألا وهى الرغبة فى الزواج والتحذير الشباب من أن تضحية الطموح على مذبح الحب لابد مفض بهم يوما ما إلى الحسرة والندم .

وينبغى علينا ألا ننظر إلى هذا الأمر بأحد هذين المنظارين ، وهما العاطفة أو الريبة والتشكك . فمهما كان تفكيرنا فإن مما لا شك فيه أن الإقبال على حياة الزواج خليق أن يفضى إلى صراع عقلى مصحوب بشتى

obeikandi.com

ضروب القلق . ومن اليسير أن نغالى فى إبراز هـذه الحقائق ، فننظر إلى المراهقة على أنها مرحلة خالية من المسرة ، حافلة بالقلق ، كذلك من السهل علينا ألا نقدرها حق قدرها ، بل وننكر وجودها إطلاقاً . ولـكن لا ريب فى أنها ظواهر حقيقية ، وهامة أيضاً ، وأنها تنتج عن نضج الأعضاء التناسلية والنزعات الجنسية . فالمراهقة ليست بحال من الأحوال «مجرد أمور جنسية» ، كما أن تفكير المراهقين ليس محصوراً تماماً فى دائرة المسائل الجنسية الصريحة ولـكن كل ما هنالك أننا لا نستطيع أن ننـكر أن العامل الجنسى عنصر شديد الأثر فى حالات الصراع والقلق التى تنتاب المراهق .